كَثُرَ نِتَاجُهَا من بَعْدِ جِيَالٍ قبلَ ذَاكَ بِعَامٍ والكُفْتَة نِتاج حَلوبَتِكَ مِن الإِبِلِ . قال ذو الرُّمة :

تَرَى كُفْتَيْهَا تُنْفِضَانِ وَلَم تَجِدْ لَهَا ثِيلَ سَقْبٍ فِي النِّتَاجَيْنِ لَامِسُ

وتقول : جَنَّبْتُ الإِبِلَ تَجْنِيباً اذا لم تُنْتِجْ إِلَّا النَّاقَةُ او الثِّنْتَانِ . ويُقال : أَنْتَجَتِ النَّاقَةُ وَنَتَجْتُهَا أَنَا أَنْتِجُ ، وتقول : نَسَأْتُ نَسْأً [نَسْئاً] اذا حَلَبْتَ لهم اللَّبَنَ ثم صَبَبْتَ عليهِ الماءَ حتى يَكُونَ النِّصفَ او أَكْثَرَ ولا يكونُ من الحَلِيبِ قال الشَّاعِرُ :

سَقَوْنِي النَّسْءَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

وتقولُ : أَنْهَأْتُ الأَمرَ إِنْهَاءً اذا لم تُبْرِمْهُ ولم تُنْضِجْهُ

تمَّ كتاب الهمز بحمد الله وذلك في سحر الثلاثاء الثاني من ذي القعدة من سنة تسع واربعين وستماية (١٢٥١ م) والحمد لله اوّلا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا وصَلواتهُ على رسولهِ محمّد النبي وآله الاكرمين وسلامه

(وجاء على الهامش بخطّ آخر) بلغت المقابلة بالاصل المنسخ عنه وكتب الملتجيّ حرم الله تعالى الحسن بن محمّد بن الحسن الصَّنْعَاني

(تنبيه) قد طبعنا هذا الاثر الجليل على حدة واضفنا اليهِ فهارس الفاظهِ على ترتيب حروف المعجم ل . ش

فتوح الصين

لرائد العلم وبطل الدين

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي (نشأة)

قطع ماتيو ريتشي البحار وطوى البيد والقفار ليبلغ عاصمة الصين ويفتح تلك البلاد

للتمدن الاوربي فحقق الله امنيته واستبشر برقوده على « ابن مملكة السماء » المحجوب في مقاصير بلاطه الفخيم ولكن

ليس من يقطع طرفًا بطلًا انما من يتقي الله البطلُ .

نعم وتقي لم يقصد في اسفاره الطويلة مجرَّد النظر الى اقطار نازحة كثيرة العجائب او الاستمتاع بما فيها من المرافق او الارباح الخسيسة كلَّا بل لم يطلب خدمة العلوم البشرية وحدها مع عظم شأنها وانما اتخذ تلك العلوم كوسيلة الى غاية أسمى واشرف اي نشر الدين القويم بين الجماهير الجمهرة من امم ناهز عددُها نجومَ السماء ورمل البحار وهي مع ذلك متكعكعة في ظلمات الشرك لا تعرف من الدين غير خرافات الوثنيين وعبادة الاصنام السجية

قد سبق لنا القول بانَّ النصرانية حاولت غير مرة الدخول في تلك الممالك القاصية وذلك منذ القرون الاولى للميلاد كما تشهد عليه عدَّة دلائل وتقاليد جمعها اصحاب البحث ولاسيما الاب آدم شال اليسوعي الرسل الصيني فنشرها كشهادة ارنوب في القرن الثالث للمسيح وشهادة التديس يوحنا في الذهب في القرن الخامس . ثم استأنف التبشير في القرن السابع دُعاة النسطورية وتاريخُ دعوتهم مدوَّن في عدَّة تآليف ولاسيما في الكتابة الحجرية العجيبة المكتشفة في سي نغانفو سنة ١٦٢٥ المكتوبة بالصينية والسريانية الراقي تاريخها الى سنة ٧٨١ للمسيح (اطلب المشرق ٣ : ٨٥ وصورة القسم الاعلى من هذا الاثر ص ٩٢٠) . ثم وليتها الدعوة الثانية على يد الرسلين الفرنسيسيين والدومنيكان كما اشرنا اليها في العدد الماضي (ص ٨٠٢)

غير انَّ كوارث الدهر كانت توالت على الكنائس السابقة العهد فمحت آثارها وانقطعت عن الاقطار النصرانية بقايا اخبارها (١ . وذلك ما دفع اليسوعيين في اواخر

---

١) قد جمع حضرة الاب بروكر اليسوعي شيئًا مما وجد من تلك الاخبار الدارسة (J. Brucker: *Le P. Matthieu Ricci*, Etudes, 1910, Juillet.) ومما وجده اليسوعيون من آثار اولئك النساطرة قطعة من الاسفار المقدَّسة من الترجمة السريانية البسيطة فيها اسفار الانبياء والمزامير والمناشيد طبعية اوفقهم عليها احد القادرة المسلمين سنة ١٧٢٧ ووصفها بعد ذلك العلامة المستشرق دي ساسي في المجموع الذي عنوانهُ Notices et Extraits des Manuscrits XII, p. 277-286)

القرن السادس عشر الى تجشُّم الاخطار ومعاناة الاتعاب والاسفار ليغرسوا في الصين تلك حبَّة الخردل التي تكلَّم عنها الرب في انجيله فتنمو وتزكو حتى تأوي اليها طيور السماء. فهذا الامل كان يسند قواهم ويضاعف عزائمهم مهما طال انتظارهم وكاد يُمال صبرهم. ويخبر عن الرئيس الاوَّل للرسالة الصينيَّة الاب فالنيانو (راجع الصفحة ٨٠١) انهُ اذ كان مقيمًا في ماكاو كان يقضي الساعات بازاء الصخور المنتصبة في سواحل الصين وهو يتنفَّس الصعداء ويفيض الدموع ويدعو الى الله بان تنفتح تلك الممالك لبشارة الانجيل فيسمع رقتهُ صوت صلاته وتنهداته وكثيرًا ما كان يردِّد قولهُ: «حتى متى ايتها الصخور تحولين دون وجاننا وتمنعينا عن المكرازة بدين الحق»

وقد رأيت سابقًا كيف فُتحت تلك الابواب المرصدة فدخلها رسل المسيح كما دخل الاسرائيليون ارض الميعاد. وكان اليسوعيون منذ قدومهم الى ماكاو وتوطنهم في حيِّها المختص بالبرتغاليين اعني سنة ١٥٧٩ اخذوا يسعون في هداية الصينيين ثم فتحوا هناك مدرسةً جعلوها بعد ذلك كمركز رسالاتهم في الشرق الاقصى. ولعلَّ اول صينيّ امكنهم اقناعهُ بجحود الوثنيَّة انما كان شابًّا اتاهم من مدينة كانتون مستكفًّا من عبادة الاصنام بعد ان خدمها مدَّة بصفة سادن (بتز) فلما اوقفهُ المرسلون على بطلان الاوثان طلب ان يصطبغ بماء المعموديَّة واظهر بعد ذلك من الثبات في الايمان ما ادهش الكل حتى انهُ قاسى العذابات وضَرْب السياط والحبس المستطيل والنفي دون ان يرتدَّ عن النصرانيَّة (١). فأثَّر هذا المثل في بعض الصينيين الساكنين في ماكاو فاخذوا يتقربون من المرسلين ويطلبون منهم ان يرشدوهم في تعاليم الدين فلبَّى الاباء ملتمسهم في السنتين ١٥٨١ و١٥٨٢ وبعد اتقانهم لاصول النصرانية عمَّدوهم واعتنوا بتهذيبهم ثم اظهر هؤلاء غيرتهم بان جذبوا كثيرين من اهل جلدتهم فتعلموا مبادئ الدين ونبذوا الوثنية وتعاليمها الباطلة

وكان وصول الاب ريتشي الى ماكاو في تلك الاثناء كما سبق القول فضحى للواجب ما كان يجدهُ في قلبه من الغيرة للتبشير وهداية الوثنيين. وما كان الواجب سوى

---

(١) اطلب تاريخ الرسالات الكاثوليكية للبارون هنريون (Baron Henrion : *Histoire Générale des Missions Catholiques*, II, 36)

درس اللغة الصينيَّة كما بيَّنا. فانرغ المجهود في اتقانها مدَّة سنة كاملة لم يأخذهُ في ذلك سأم

وفي السنة التالية لوصول رتشي الى ما كاو اي سنة ١٦٨٣ توفِّق الاب دوجياري فنال من لطف والي مقاطعة كانتون ان يسكن واخوتهُ في تشاوكنغ فدعا الاب رتشي اليها وفيها باشر بمؤانسة اهل الصين واتَّصل بعلمائهم كما مرَّ

وكان المرسلان في اوَّل الامر لا يتباحثان مع ادباء الصين في غير العلوم لئلا ينفروا منهما اذا عرضا عليهم النصرانيَّة فاقتصرا على المعيشة العفيفة والزهد بالدنيا وممارسة الفضائل الرهبانيَّة فاضحى مثلهما اعظم داعٍ لاعتبار دينهما اذ كان اولئك العلماء يقابلون بين سيرتهما الصالحة وتُقاهما وسيرة ارباب الدين عندهم المعروفين بالبُعد المنغمسين في كل ملذات الدنيا واعمالها الزائلة. وكانوا خصوصاً يتعجبون من نزاهة نفسهما اذ لم يطلبا ربحاً خسيساً ولم يقبلا هديَّةً من احد الَّا ما لم تسمح اللياقة بردِّهِ فيعوِّضان عنهُ بما هو ارفع قيمةً

ومن الوسائل التي اتخذها المرسلان ليعظِّما دينهما في اعين الصينيين انهما خصَّا رهبةً كبيرة من منزلهما فزيَّناها افخر زينة وعرضا فيها الصور الدينيَّة بينها صورة بديعة للعذراء الطاهرة واقاما في وسطها مذبحاً كانا يقدِّمان عليه كل يوم الذبيحة المقدَّسة. فكان الصينيون لا سيما كبارهم اذا دخلوا المنزل يزورون امام ذلك المعبد ويتأملون ما عُلِّق على جدرانهِ من التصاوير وعلى مذبحهِ من الآنية المقدَّسة فيسألون المرسلين عن معانيها فيجيب المذكوران على اسئلتهم وينشران لهم العقائد المسيحيَّة فيأخذهم العجب من حُسنها وعظم شأنها وموافقتها للعقل وكان ما اختبروه سابقاً من سعة معارفهما بالرياضيَّات والفلكيَّات يزيدهم ثقةً بتعاليمهما الدينيَّة

وقد قلنا في ما تقدَّم انَّ بين المآثر النفيسة التي كان الاب رتشي اتى بها من بلاد الغرب فعرضها في متحفهِ كتاباً بديعة الصنع محكمة الطبع بهيَّة التصاوير جميلة التجليد وكان بينها عدَّة تآليف نصرانيَّة دينيَّة كالتوراة والاناجيل فكان الصينيون ينظرون اليها بعين الاعجاب ويطلبون من المرسلَين ان يفسِّرا لهم مضامينها فكان الابوان يعدَّان ذلك فرصةً مناسبة ليشرحا لهم شيئاً من امور الدين واسراره الالهية فتحيك في صدورهم وتؤثر في عقولهم

ومما ساعدهما ايضاً على رفع شأن الدين في اعين الصينيين درسهما لكتب فلاسفتهم القديمة فكانا يستخرجان منها ما يُثبت تعليمهما كوحدانيَّة الله وصفاته العلويَّة وتكوينه للعالم من العدم وغير ذلك مما وجدا آثاره في تآليف حكمائهم وذهلوا عنهُ بتوالي الاجيال. وكذلك التعاليم الادبيَّة فان الصينيين اثروا على ما سموه منها من الابوين بل طلبوا ان تُكتب لهم وصايا الله العشر فكُتبت ووُزِّعت على من رغب الحصول عليها. فكان توزيعها وسيلةً جديدةً لاكرام مرسلي الغرب الذين عرفوهما بالوليَّين. وكتب حاكم تشاوكنغ على باب دارهما كتابتين عاتهما على جانبيه. تعريب الاولى: « هنا يسكن الرجال القدّيسون الذين قدموا من الغرب ». والثانية: « هنا تُفسَّر شريعة اله السماء الحقيقيَّة »

ثم رغب الصينيون الى الاب روجياري ان يؤلف لهم كتاباً يضمنهُ مختصر التعليم المسيحي باللغة الصينيَّة العاميَّة وكان ذلك اوَّل تأليف نصراني وُضع في تلك اللغة فاصاب شهرةً واسعة. الَّا ان الادباء لم يُقبلوا عليه لضعف لغته وللادباء هناك لغة خاصَّة يترفَّعون بها عن هجنة العامَّة فاراد الاب رتشي ان يسدَّ ذلك الخلل بتآليف دينية بليغة اللسان لا يأنف منها العلماء فاخذ يضاعف همتهُ في درس تلك اللغة الفصيحة

وحدث في تلك الاثناء انَّ احد العلماء الذين كانوا يتردَّدون الى منزل المرسلين طلب التنصر وتتلمذ لهما فجعل يُسعف الاب رتشي في كتابة تعليمه باللغة الفصحى حتى انجزه بعد مدَّة ونشرهُ فحظي الكتاب لدى المتأدبين وجعلوا يدرسونهُ ثم اعتمد ذلك الصيني العالم فاتخذه المرسلان كساعد لهما في شرح العقائد النصرانيَّة وتبعهُ في التنصر نحو اربعين من مواطنيه

وفي السنة ١٥٨٦ جاء الى تشاوكنغ مرسلان جديدان فتمكن الاب روجياري ان يخرج في صحبة احد الاعيان الى وطنه مدينة هانغ تشاو التي يدعوها كَتَبة العرب « خنسا » فنزل اياماً كضيف في بيت الرجل وبشَّر بالدين المسيحي أمام كثيرين فطلبوا العماد لكن المرسل لم يمنحهُ لغير والد ضيفه اذ رآه طاعناً في السن ولابن احد كهنة الاصنام الذي الحَّ عليه في ذلك واظهر نشاطاً غريباً. اما الباقون فوعدهم بانهُ يرسل اليهم واحداً من اخوته ليزيدهم معرفة بالنصرانيَّة فيرشحهم لاقتبال اسرارها

ومن تآليف الاب رتشي الدينيَّة في تشاوكنغ كتاب في الصوم استحسنهُ الصينيون

وعرفوا به فضل الانقطاع عن المآكل زهدًا وتنسكًا وفضل الباشرين للاصوام.

وكان المرسلون قد لحظوا في اهل الصين جفاء وفظاظة نحو المسقومين والزمنى فاخذوا يتقربون من اولئك البائسين كل ما تسمح لهم الاشغال فيعزونهم ويحضونهم على الصبر الجميل ويحسنون اليهم بما لديهم من الادوية او المساعدات المادية فكان ذلك يكسب لهم حب الجمهور. وقد جازاهم الله بهداية بعض هولاء الصعاليك الى الايمان الصحيح وكان اول طالب للتنصر في تشاوكنغ مخلعًا عُني الآباء بامره فتحقق بارتداده قول الرب: « الفقراء يُبشَّرون »

وكانت مدة اقامة المرسلين في تشاوكنغ نحو سبع سنوات لم تضع فيها اتعابهم فكان عدد الذين تنصَّروهم هناك نحو مئة شخص كان بينهم بعض النساء الشريفات اللواتي بتنامهنَّ وغيرتهنَّ اضحين قدوة لاهل المدينة. وكان الآباء يجرون بكل فطانة في تبشير الصينيين لا يمنحونهم سرّ العماد الا بعد امتحان ايمانهم وثباتهم. وقد كتب احدهم في اواخر سنة ١٥٨٥ ما تعريبهُ: « اننا لم نعمد الا قليلًا من الصينيين ممن شدَّدوا علينا الالحاح لتعميدهم لئلا يتخذ الوثنيون من عدنا سببًا للهيجان. الا ان هولاء القليلين ذوو ايمان حي يقومون بكل نشاط بفرائض الدين »

وفي اواسط السنة ١٥٨٩ تولى الحكم في تشاوكنغ رجل شكس الخلق شرس الطباع فأوعز الى المرسلين ان يغادروا المدينة واضطرهم الامر ان يخرجوا منها. على انهم في غضون اقامتهم هناك كانوا اكتسبوا محبة كثيرين من الصينيين ولا سيما الادباء والاعيان ممن وقفوا على صحة امرهم وعرفوا عجزهم وبُجزهم فلم يجدوا فيهم غير ما يحببهُ اليهم

وفي اثناء ذلك كان سفر الاب روجياري الى اوربة فعيَّن الاب رتشي كرئيس الرسالة الصينية وانتقل الى مدينة وجد فيها بعض معارفه تدعى تشاوتشيو من ايالة كنتون مع الاب دي الميدا وهناك قدم عليه الصينيان الطالبان الترهب وزيا بزي علماء الصين فلبس لبسهم وارسل شعرهُ مثلهم وارخى على شيبهم لحيتهُ (كما ترى في صورته) وكانت معرفتهُ للغة الصينية قد ازدادت حتى لم يعد يحتاج الى ترجمان

وسكن رتشي ورفيقهُ في تشاوتشيو ست سنوات قضوا في مدتها وقتهم بين الصلاة وخدمة العلوم كما صنعوا في تشاوكنغ

صورة قديمة تمثل الاب رتشي وتلميذهُ « بولس لي » المسمَّى ايضاً « زي كولاو »
او « سيركوانغ كي » وزير الملك « ثان لي »

القسم الاعلى من كتابة مي تاقتر السريانيَّة
والصينيَّة المكتوبة سنة ٧٨١ للمسيح

太僧天主教門郝僧皇
哂嘶嘟第五頃首拜
大明国国主御座下伏以
天主者吾人之大父母也

مطلع رسالة البابا بكستوس الخامس
الى ملك الصين سنة ١٥٩٠

وعزّى الله قلب رتشي باهتداء احد العلماء الذين كانوا يتناوبون اليهم ليأخذوا عنهم العلوم الاوربيّة. وكان اسم هذا الرجل « تشين تاي صو » وكان يحبّ المعارف ويتوق الى التقدّم في مكنوناتها فطلب من رتشي ان يلقي عليهِ دروساً في الرياضيّات وعلم النجوم والكيميا فاجاب المرسل الى رغبتهِ ودرّسهُ تلك العلوم مدّةً حتى برع فيها. وكان التلميذ في اثناء درسهِ يراقب اليسوعيين وبالاخصّ معلمهُ فكان يلحظ فيهم من التقى والفضل ما لم يعتدهُ بين افضل مواطنيهِ فطلب من الاب رتشي ان يتسنّر لهُ تعاليم النصرانية ففعل بطيب الخاطر. وما لبث الوعوظ ان عرف بطلان الشرك وزور مذاهب ملّتهِ في الصين فطلب ان يُنظم في سلك المؤمنين فرضي الاب رتشي وبعد امتحانهِ مدّة اشهر متوالية منحهُ سرّ العماد في اوائل شهر ايلول سنة ١٥٩٤ فكان تشين تاي صو لا يفارق معلمهُ ويمارس ما يراه فيهِ من الفضائل المسيحيّة وكان يساعدهُ في تنقيح الكتب التي كان يصنفها في الصينيّة

وفي تشاوتشيو اثار الله عقل رجل آخر اسمهُ « زيكو لاو » او « سيو كوانغ كي » كان لارتداده دوي عظيم فان هذا الصيني كان مولوداً في شانغ هاي سنة ١٥٦٢ وانقطع منذ حداثة سنهِ الى درس الآداب الصينيّة فنال بين اترابهِ قصب السبق حتى عُدَّ من ابرع الكتبة فجاء الى مدينة تشاوشيو وانشأ هناك مكتباً ازدحمت فيهِ الاحداث

واذ كان في بعض الايام مجتازاً امام منزل المرسلين احبَّ أنْ يدخل ليرى « رجال الغرب » فما فتح باب الدار حتى وقع نظرهُ على معبد الصلاة المزيّن بالصور الدينيّة اخذتهُ صورة السيد المسيح لذكرى المجد التي أثرت في قلبهِ تأثيراً عظيماً فخرّ ساجداً لها وهو لا يعلم من امرها شيئاً. ثم عاد الى مكتبهِ بعد ان سأل على رفيق الاب رتشي المسمى لازر كاتانيو دون ان يفاتحهُ في امور الدين الّا ان ذكر الصورة لم يبرح من ذهنهِ. ثمَّ تقدَّم « زيكو لاو » بعد ذلك في علوم الصين حتّى انهُ نال درجة الماذونيّة ثم الملفنة ورُشّح للمناصب العالية بين اهل وطنهِ وعُدَّ من ائمة العلماء. وكان في اثناء ذلك يتردَّد من وقت الى آخر على المرسلين فيعرض عليهم مشاكل ذمّتهِ ثم يُعمِل فيها النظر في عزلتهِ ويطلب الى الله ان ينير عقلهُ ويتشع عن قلبهِ ظلام الضلال فاستجاب الله صلاتهُ ومنحهُ قبل ارتدادهِ من النعم الخاصّة ما لا يمنحهُ الّا للقليل حتّى انهُ تعالى كشف لهُ شيئاً من اعظم اسرار النصرانيّة كسرّ الثالوث الاقدس كما اقرَّ بذلك. بيد

انهُ لم يتسرَّع بطلب المعموديَّة حتَّى أتقن كل تعاليمها وتبيَّن صحة كل معتقداتها فطلب العماد في غرَّة شهر تشرين الثاني سنة ١٦٠٣ في مدينة نانكين وعُرف بعد ذلك باسم « بولس لي » وبالدكتور « بولس زيكولاو » ولم يزل يتقلَّب في الرتب والوظائف حتى بلغ رتبة الوزير الاوَّل لدولته وتولَّى ديوان العلوم في پاكين. وكان يؤدّي الآباء من الخدم الجليلة ما شكرهُ عليها الحبر الاعظم. وقد مارس الى آخر نسمة من حياته اسمى الفضائل المسيحية التي حبتهُ الى كل مواطنيه وهدى بامثاله الصالحة وارشاداته مئين من الوثنيين بينهم العلماء والكتبة و لمادرة واتفق من ماله الخاصّ المبالغ الوافرة لتشييد الكنائس وانشاء الاعمال الخيريَّة وتعليم اهل وطنه. وكانت وفاتهُ سنة ١٦٣٣ مات ميتة الابرار فأقيمت في تشييع جنازته من الحفلات ما كان انتصاراً للدين الكاثوليكي. وقد كُتبت سيرتهُ الصالحة فنشرت بالطبع وفيها شواهد من جلَّة معاصريه تنبئ بعظم فضله. ولا يزال نسلهُ باقياً الى اليوم في زيكاواي قريباً من شانغ هاي (صورتهُ ص ٩٢٠)

فلنرجع الى الاب رتشي في تشاوتشيو حيث كان منكبّاً على التعلم والتأليف وهناك اعاد النظر في كتابه الدين المستقيم الذي خصَّهُ بالعلماء الصينيين وأتى فيه بكثير من الشواهد المنقولة عن تآليفهم القديمة في توحيد الله ورذل عبادة الاصنام و بيَّنة الحقائق التي هي كتمهيد لوحي الدين المسيحي. فانتشر هذا الكتاب انتشاراً عظيماً وطُبع اربع مرَّات قبل وفاة المؤلف وكان سبباً لرجوع عدد لا يُحصَى من الصينيين عن اضاليل الوثنيَّة الى اعتناق النصرانيَّة. وكانت لغة هذا الكتاب غاية في البلاغة حتى ان امبراطور الصين كيان لنغ (١٧٣٦—١٧١٦) نظمهُ في سلك ابلغ التآليف الصينيَّة التي كان انشأ لها مكتبة خاصَّة. وكان قبله الامبراطور كَنغ هي (١٦٦٢—١٧٢٣) فحص الكتاب فحصاً مدقّقاً فاستند اليه ليمنح حرّيَّة التبشير بالنصرانيَّة في كل ممالكه وقد عرف هذا الكتاب اهلُ تنكين واليابان واقرُّوا بسموّ تعليمه

وقد اخبرنا سابقاً عن مساعي الاب رتشي ليبلغ الى عاصمة المملكة فيتقرَّب من سلطان البلاد و ينال منهُ الحرّيَّة لنشر الدين المسيحي في انحاء الصين. وكان الاحبار الرومانيُّون يحضُّونهُ على ذلك و ينشطون همَّتهُ. وفي سنة ١٥٠٠ كتب البابا سكستوس الخامس رسالة الى ملك الصين فنُقلت الى اللغة الصينيَّة (اطلب صورة قسم منها في الصفحة ٩٢٠) وأُرسلت مع هدايا الى ماكاو ليقدّمها اليسوعيون الى صاحبها

الا انّ آمالهم في الدخول الى العاصمة لم تتمّ الا عشر سنين بعد ذلك كما بيّنّا

فلمّا فُتحت پاكين امام رتشي في اوائل سنة ١٦٠١ كما تقدّم واكتسب ثقة الامبراطور بما عرفهُ هذا من حكمتهِ وتبيّنهُ من سعة معارفهِ حتى جعلهُ من خاصّتهِ ما كان الرسل ليأتي انهُ قبل كلّ مُرسلٌ باسم نائب المسيح القائل : « اذهبوا وتلمذوا كل الامم »

فبينما كان يقضي ايّامهُ بخدمة الملك وتجهيز ما يطلبهُ منهُ من الادوات الفلكيّة وغيرها كان يرحّب بكل القادمين اليهِ من اعيان الدولة وكبار العُمّال ويتباحث معهم بامور الآداب والدين فلا يلبث ان يزيدهم رغبةً في الاطلاع على عقائد النصرانيّة فكانوا يطلبون منهُ كتباً توقفهم على خلاصة دينهِ فيهديهم الى تأليفهِ السابق ذكرهُ فيقرأونهُ بكل شوق ويطرئون تعاليمهُ السامية

بل كان رتشي سبق وعرض على الامبراطور نفسهِ شيئاً من امور النصرانيّة منذ يوم دخولهِ عليهِ فانهُ كان جعل في جملة الهدايا التي قدّمها « لثان لي » تصاوير بديعة تمثّل السيّد المسيح ووالدتهُ الطاهرة وبعض اسرار الدين فطلب منهُ الامبراطور ان يفسّر لهُ معانيها فلمّا اوقفهُ على حقيقتها قام واكرمها منحنياً امامها علانيةً فكان لفعل الملك وقع حسن في اعين اهل بلاطهِ واذ عرف الجمهور فعلهُ ازدادوا في اكرام دين الاجانب

وما مرّ على الاب رتشي سنة واحدة في پاكين حتى رأى كثيرين من اهل الحاضرة يطلبون التنصّر لكنهُ لم يُرد ان يصيغهم بماء المعموديّة حتى تتأصّل في قلوبهم جذور الايمان فكان يبالغ في تعليمهم وينقّد الاعتراضات التي يسمعها من علمائهم حتى يراهم مستعدّين للجهاد في سبيل دينهم ولتضحية دنياهم لخلاص نفوسهم

وكان بين الاوّلين الذين وجدهم اهلاً لقبول العماد ستّة نفر من اشراف الدولة وحاشية الملك نصّرهم السنة ١٦٠٢ كان احدهم من قضاة الديوان الملكي . والآخر زوجاً لاخت الامبراطور . وعمّد معهما ابن طبيب الملك . فكان لتنصير هؤلاء الرجال شهرة كبيرة حتى بين نساء الاشراف والنساء في الصين مقصوراتٌ محجوبات لا يستطعن الخروج من دورهنّ الّا نادرًا . الّا انّهنّ لم يزلن يُلححن على ازواجهنّ ليسمحن تعليم النصارى حتى سمح لهنّ بذلك فكان الاب رتشي يذهب الى بيت يجتمعن فيهِ مع رجالهنّ فيعرض عليهنّ النصرانيّة الى أن يُحكمن اصولهُ فيعتمدهنّ . وقد أعلن الاب

وتشي في كتاباته بان اولئك المتعمدات اظهرن نشاطاً عظيماً في اتمام الفرائض الدينيَّة وجلبن غيرهنَّ الى استماع التعاليم الدينيَّة وساعدن المرسلين بما أنفقن على إعالة فقراء المتنصرين وتعليمهم

وفي سنة ١٦٠٤ رأى الاب وتشي انَّ عدد المهتدين يزداد كل يوم فلا غنى لهم عن كنيسة واسعة تضمُّهم فوافقهُ المتنصرون على رأيهِ وارادوا ان يشاركوهُ في هذا العمل. وكان في مقدمتهم « بولس لي » السابق ذكرهُ . فشُيد البناء على طرز بديع ونُقشت الكنيسة نقشاً حسناً وزُيِّنت بضروب التصاوير لكي يؤثر نظرها في كل الزائرين الذين جعلوا يتزاحمون ليروا « بيت إله السماء » كما كانوا يدعونهُ

على انَّ هذا الرونق وهذا البهاء اثارا في قلوب عَبَدة الاوثان وتَبَعة دين بوذا الحَسَدَ والبغض فأخذوا يضمرون الشرَّ للمرسلين ويبثُّون بين الناس التُّهَم في حقِّهم. وممَّا سعوا بهِ في معاكستهم القول بأنَّهم قدموا الى بلاد الصين ليفتحوها للاوربيين ويسلِّموها في ايديهم فنشروا هذه السعايات في كانتون وناتكين والامكنة التي رأوا فيها بعض النفوذ للمرسلين. فألقى الحكَّام البعض منهم في الحبس في كانتون وصادروا واحداً منهم بالضرب فمات شهيد ايمانهِ. الَّا ان الباطل زهق بعد قليل وظهر الحقّ وقام كثيرون من اصدقاء المرسلين فدافعوا عنهم واثبتوا براءتهم وكذب اعدائهم. فكانت نتيجة هذه المعاداة ان انتشر الدين النصراني حيث لم يُعرَف سابقاً

وكان الاب وتشي يضاعف الهمَّة في تصنيف الكتب الدينيَّة لينشرها في انحاء المملكة. ومما وضعهُ حينئذٍ كتاب مباحثات في المعتقدات المسيحية طبعهُ سنة ١٦٠٨ وضمَّنهُ معظم المشاكل التي تخطر على بال اهل الصين مع حلِّها . وصنَّف كتاباً آخر تتبَّع فيهِ اضاليل الشيع الوثنيَّة وبيَّن عقلاً ونقلاً بطلان كل واحدة منها. وكذلك وضع كتاباً في الفلسفة الادبيَّة. هذا فضلاً عن الكتب العلميَّة التي سبق لنا ذكرها ولم تعدُّدها كلُّها كاصول تاريخ الصين ومعجم اللغة الصينيَّة والجغرافيَّة الطبيعيَّة ومجموع رسائل كتبها لاصحابهِ في اوربا تنيف على المئة عدًّا طُبع قسم منها فقط وتحتوي كلُّها المعلومات الواسعة عن الصين واحوالها دينًا ودنيًا وهي تُحفظ في بعض مكاتب الجامعة

فكل هذه الاشغال والاتعاب التي كان يتجشَّمها الاب وتشي بهمَّتهِ المعتادة ما لبثت ان انهكت قواهُ فنقلهُ الله بعد مرض قصير الى دار كرامتهِ ليكافئهُ على وفرة

اعمالهِ الصالحة التي باشرها لمجدهِ تعالى. وقد اثبتنا سابقًا ما خلَّفهُ بعد وفاتهِ (في ١١ أيار سنة ١٦١٠) من الذكر الطيب في قلوب الصينيين وما جرى لهُ من الكرامة في حفلة جنازتهِ

وكانت الكنيسة الصينيَّة قد اصبحت يوم وفاة منشئها شجرةً نضيرة الاغصان وافرة الثمار. فكان عدد المرسلين من عشرين الى خمسة وعشرين بينهم خمسة عشر كاهنًا وهم يسكنون خمسة اديرة احدها في كانتون وثانكين وباكين. اما عدد المتنصرين فكان يناهز على الالفين وهو لعمري عدد قليل بالنسبة الى تلك الممالك الواسعة لكنهُ كثير اذا اعتبرت ما لقي المرسلون من المشاقّ في اتمام مهنتهم ليدرسوا لغة الصينيين العويصة وليتألوا عندهم حظوى ويزيلوا ما تراكم على عقولهم من الاوهام

وزد على ذلك انَّ اولئك المتنصرين لم يكونوا في الغالب من رعاع القوم وسفلتهم بل من اشرافهم وعلمائهم ممن لا يقنعون الَّا بالحجج الراهنة لاسيما ان الدين النصراني كان يحظر عليهم كثيرًا من عاداتهم الباطلة التي انطبعوا عليها احدُّها تعدُّد الزوجات ويلزمهم بعدَّة فرائض لم يألفوها كممارسة الاسرار والاقرار باخفى الذنوب والصوم في ايام معلومة. وكثيرًا ما كان المهتدون يعرِّضون بنفوسهم الى السخريَّة والهزء في امين مواطنيهم الذين كانوا يعيِّرونهم بجحود دين اجدادهم

وقد اظهر هؤلاء النصارى الجدد صدق ايمانهم وثباتهم في الدين رغمًا عن كل الاضطهادات والمصادرات فبعد وفاة الاب رتشي بخمس سنوات توفي الملك ڤان لي فامتحن الوثنيون اهل الايمان محنًا شديدة دامت سنين طويلة دون ان يقلعوا من قلوبهم ذلك الزرع الجيِّد الذي زرعهُ فيها الاب رتشي ورفقتهُ

وليس في نيتنا ان نروي اخبار تلك الكنيسة بعد مُنشئها وانَّما يحسن بنا القول انَّ اليسوعيين تتقفَّوا آثار رتشي ولم يحيدوا عن خدمة الدين والعلم بنشاط لم يعرف السأم مدَّة ١٧٠ سنة توالوا فيها هناك رهدوا الالوف المؤلفة من الصينيين لمعرفة خالقهم وتبعهم كثيرون من المرسلين من رهبانيَّات أُخرى ساعدوهم في جمع حصاد ربِّ البيت

على ان انماء الرهبانيَّة اليسوعيَّة في اواخر القرن الثامن عشر كان ضربة لازبة على الرسالات الكاثوليكيَّة عمومًا وعلى رسالات الصين خصوصًا. لكن الاب رتشي لم يهمل في السماء تلك الارض التي سقاها بعرق جبينهِ وارتوت من دماء غيرهِ من المرسلين

فنال بشفاعته ان يستأنف العمل في اواسط القرن الماضي عدّة رهبانيّات تقاسم مرسلوها انحاء الصين لنشر الايمان فيها فكلّل النجاح مساعيهم . واليوم يبلغ عدد المتنصرين مليوناً بنيف يغلب على اكثرهم التحمّس في الدين كما اظهروهُ يوم ثورة البوكسر فمات منهم الوف شهداء ايمانهم . وللبسوعيين هناك رسالتان كبيرتان في معاملتي كيان ننغ وتشالي عدد المؤمنين فيهما ينيف على ٤٠٠,٠٠٠ ولا يقلّ في السنة عدد المتنصرين من الوثنيّين على يدهم عن العشرين الفاً غير المواليد والاطفال . وقد شيّدوا هناك نحو الفيّ كنيسة او معبد وانشأوا عدداً وافراً من اليتامى والمستشفيات ولهم مدارس زاهرة للذكور والاناث يدرس فيها نحو ٥٠,٠٠٠ من الصغار . والامل معقود بان اهل الصين الذين يعدون حالاً في التشبه بالاوربيين يدركون ايضاً بطلان دينهم القويم فيقبلون زرافات الى حجر الكنيسة المسيحيّة ويجدون هناك الحقّ والحياة اللذين رفع بينهم لواءهما الاب رتشي قبل ثمانية سنة . هذا ما تلتمسهُ من جودهِ تعالى فانه على كلّ شيء قدير

المهاجر السوري

للاب انطون رباط اليسوعي

المهاجر السوري كتاب نشرهُ جناب الاديب جميل افندي بطرس حاوه احد التراجمة السوريين في خدمة ادارة مهاجرة الولايات المتحدة الاميركيّة وطبعتهُ جريدة الهدى النيويركية عدّد فيها المؤلف ما يجب ان يعرفهُ المهاجر السوري ويعمل بهِ فطالعناه بمزيد المسرّة . ولو لم يُنشر بالطبع فسهات الاستفادة من مطالعتهِ على كل من لهُ رغبة في المهاجرة لنقلنا منهُ فصولاً على صفحات البشير والمشرق ودعونا الرصفاء الكرام الى تعميم انتشارهِ في كل الانحاء لما تتضمّنهُ من الفوائد والاشارات الآئلة الى خير المهاجرين وخير الوطن . فان كثيراً من السوريين قد يغترّون بالآمال فيحسبون انهم اذا وطئوا ارض كولمبوس لا يعوزهم الّا المجارف لجمع سبائك الذهب وشذورهِ . وهم في ذلك جهلة او مغرورون فلا بدّ للمهاجر من ان يحسر عن ساعديه ويشمّر عن ساقيه ويكدّ ويجدّ ويواصل الشغل في المعامل او السفر في المفاوز و « الكشّة » او « الجزدان » على منكبيه يأكل خبزهُ بعرق جبينهِ حتّى اذا ما اثقل كيسهُ دراهم او دنانير كانت هذه انفاسَ حياتهِ وقطراتِ دمهِ